التاريخ فى سير الرجال

أحمد عرابى

أما آن للتاريخ أن ينصف هذا المصرى الفلاح
وأن يحدد له مكانة بين قواد حركتنا القومية ؟

للأستاذ محمود الخفيف

واتفق الضباط وحلفاؤهم أن يسير عرابى على رأس الجيش إلى عابدين فى اليوم التالى ليطالبوا الخديو بوضع حد لتلك الحال التى ضجت منها البلاد ؛ وأرسل عرابى خطاباً إلى الخديو فى صباح ذلك اليوم المشهود فى قصر الإسماعيلية ، وكان الخديو قد حضر فى شهر سبتمبر إلى القاهرة ، ينبئه فيه بما اعتزم أن يقوم به عصر ذلك اليوم !

يقول عرابى فى مذكراته : « ولما كثرت دسائس الحكومة وبان ختلها وعزمها على اغتيالنا ، أخذنا حذرنا منها ، وسهرنا على إحباط تلك الدسائس المنكرة ، وكان السير مالت قنصل انجلترا بمصر كثير التردد على الخديو ليلاً ونهاراً دون غيره من وكلاء الدول الأوربية ، فأوجسنا من ذلك خيفة على مصير بلادنا ، وحشينا من مطامع انجلترا التى كانت ترمى إلى التهام وادى النيل أسوة بما فعلته فرنسا بتونس حتى يتم التوازن التى تدعيه أوروبا ؛ فعرضنا مخاوفنا على جلالة أمير المؤمنين ليحيط علماً بما كان جارياً فى مصر ولكيلا يتورط فى تصديق ما قد يصل إليه من دسائس أعداء البلاد . وذيلنا العريضة المذكورة بإمضائى وإمضاءات إخوانى على بك فهمى وعبد العال بك حلمى وأحمد بك عبد الغفار بالنيابة عن الجيش ، وأحمد بك أبو مصطفى وأحمد بك الصباحى وعثمان باشا فوزى وغيرهم من وجوه الأمة بالنيابة عن جميع المصريين ... »

* * *

وفى عصر ذلك اليوم ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١ تحرك الجيش بقصد عابدين ؛ فخطت الثورة الوليدة أجرأ خطواتها وأبعدها أثراً فى تطور حوادث ذلك العهد .

وكان الخديو فى قصر الإسماعيلية . فأرسل يستدعى السير أوكلند كلفن . ولما حضر سأله ماذا عسى أن يفعل فى هذا الموقف. قال كلفن : « فنصحت إليه أن يقاوم ؛ فقد أخبرنى رياض باشا أن فى القاهرة فرقتين مواليتين ، لذلك أشرت على الخديو أن يدعوهما إلى عابدين مع ما يمكن الاعتماد عليه من الحرس الخربى ، وأن يضع نفسه على رأسهما . فإذا ما وصل عرابى قبض عليه بشخصه . فأجابنى أن لدى عرابى بك المدفعية والفرسان ، وربما أطلقوا النار فأجبت أنهم لن يجرؤوا على ذلك ؛ ومتى توفرت له الشجاعة للمقاومة ، وعرض نفسه شخصياً ، فأنه يقضى له أن يقضى على المتمردين ، وإلا فأنه ضائع »[1]

هذا ما أشار به كلفن، وما نراه فى ذلك يدفع بالتى هى أحسن، وما نراه يحمل — كما يقول كرومر — إلى الخديو : « قطعاً من تلك الروح التى تحيى جثة الامبراطورى » وإنما نراه يلقى الزيت والحطب على النار حتى لا تبق ولا تذر ، وبعدها تقتنص الفريسة بدعوى إنقاذ البلاد من نار الفتنة . وما أظن ذلك القول محتاجاً إلى دليل . فهذا الذى يدعو إليه كلفن لو وقع لن يكون

(١) Modern Egypt : Earl of Cromer. P. 144. M. & Co. 1911.

إلا حرباً أهلية شرها مستطير ، وأمرها خطير .

وتوجه الخديو إلى عابدين قبل حضور الفرق ، ومعه كلفن ورياض وستون باشا . فاستدعى على بك فهمى رئيس الحرس ، وأشار عليه بالدخول إلى القصر بفرقته والتحصن بالنوافذ العليا وقد نصح للجند بقوله : « أنتم أولادى وحرسى الخصوصى ، فلا تتبعوا التعصب الذميم ، ولا تقتدوا بأعمال الآلات الأخرى » فأطاع الجند وأخذوا يتأهبون .

وسار الخديو بعد ذلك إلى القلعة ، ولكنه لم يجد من فرقتها مثل ما ظهر له من ولاء الفرقة السالف ذكرها . فسار إلى العباسية حيث كانت فرقة عرابى ، ولكنه علم هناك أن عرابياً سار منذ ساعة على رأس جنده ، ومعهم المدافع بطريق الحسينية إلى عابدين فقفل أدراجه إليها ...

وتلاقى عرابى فى ميدان عابدين بالفرق الأخرى بقيادة أحمد بك عبد الغفار وعبد العال بك حلمى وابراهيم بك فوزى وفوده أفندى حسن وغيرهم من أنصاره ، وأرسل عرابى يستدعى على بك فهمى فحضر من داخل القصر فعاتبه فرد بقوله : « إن السياسة خداع » ثم ذهب فعاد بفرقته ، وانضم إلى الجيش فأصبح القصر خلوا من كل عناصر المقاومة .

وتجمع وراء صفوف الجيش آلاف من أهل القاهرة الذين أخذتهم الدهشة لا ريب لهذا المنظر ؛ واشرأبت أعناق الشعب التى طالما ألفت الذل ، وتطلع من فوق أكتاف الجند ، ومن خلال صفوف الفرسان لينظر ماذا يكون فى هذا الوقف الرهيب ؛ واسم عرابى يجرى على الألسن فى حين تدور الأبصار باحثة عن موضعه ، وهو على ظهر جواده أمام جنده يتأهب لتقدم الخديو ليسمعه كلمة مصر ، كلمة الشعب الذى ألبس جده العظيم بالأمس السكرك والقفطان دون رجوع إلى السلطان . وما أعظم هذه الكلمة ينطق بها فلاح من أعماق الوادى تبت وتعا على ثراه !

ووصل الخديو إلى عابدين بعد أن فشلت سياسة طوافه على الآلايات ، تلك السياسة التى تدل فى ذاتها على منتهى الضعف ، والتى لا يشفع له فى اتباعها سوى أنها كانت آخر سهم فى جعبته إن كان هنا شفيع . والحق أن الخديو قد لاقى فى ذلك الطواف ما تنخلع له أفئدة أقوى من فؤاده . وحسبك أن فرقة القلعة قد ثارت فى وجهه حينما أمسك بتلابيب قائدها مهدداً حتى لقد وضع العساكر الأسنة فى بنادقهم بأمر من هذا القائد وتجمهروا حول الخديو حتى صاح بالقائد « أفسح لنا الطريق يا بكباشى » .

ودخل الخديو السراى من باب خلفى . ويقول مستر كلفن إنه قفز من عربته وأشار على الخديو أن يسيروا إلى الميدان ففعل توفيق ذلك ، وسار إلى حيث اجتمع الجند ، ووراءه ستون باشا وأربعة أو خمسة من الضباط الوطنيين ، وواحد أو اثنان من الضباط الأوربيين ؛ ويذكر عرابى أنه كان معه المستر كوكس قنصل انجلترة بالأسكندرية والجنرال جولد سمث مراقب الدائرة السنية

وتقدم الخديو ثابت الخطى ، فأشار عليه كلفن أن يأمر عرابيا بتسليم سيفه إذا ما دنا منه وأن يأمره بالانصراف ثم يطوف بعد ذلك على الفرق فيأمرها بمثل هذا الأمر

وسار عرابى على ظهر جواده حتى إذا اقترب من الخديو صاح به الخديو : « ترجل وأغمد سيفك » . ففعل عرابى دون إبطاء ، ومشى نحو الخديو ومن خلفه نحو ثلاثين ضابطاً فأدى التحية العسكرية

الموقف رهيب بالغ الرهبة ! فى هذا الجانب إذا نظرنا إلى حقائق الأمور نرى مصر التى أيقظتها الإحن والفواجع تتمثل فى هذا الجندى الفلاح تجرى على لسانه كلمتها فى غير التواء أو تلعثم ؛ وفى الجانب الآخر صاحب السلطان والجاه الموروث ، تنضب هذه اليقظة وتذهله ، مع أنه رآها منذ بدايتها ورأى أباه على جلالة قدره يوسع لها صدره ويخفض لها جناحه فيزداد بذلك رفعة ... هنا الحرية الوليدة ، والديمقراطية الجديدة ؛ وهناك التقاليد العتيدة ، والأوتوقراطية العنيدة ؛ ومن وراء ذلك كله التعالب وبنات آوى تتمسكن لتتمكن ، وتتربص لتنقض !

والتاريخ شاهد يثبت للقومية المصرية موقفاً من أروع مواقفها ، ومظهراً من أجل مظاهرها ، ويضيف بذلك إلى صفحات الحرية فى سجله صفحة جديدة لن تبلى الأيام جدتها ، أو تبخس أغراض المبطلين قيمتها

همس كلفن فى أذن الخديو : « هذه هى ساعتك[1] » فأجاب

(١) Modern Egypt.

الخديو : « نحن بين أربع نيران » فقال كلفن : « كن شجاعاً » فتبادل الخديو وأحد الضباط الوطنيين ثم التفت إلى كلفن قائلاً . « ماذا عسى أن أصنع ؟ نحن بين أربع نيران ، إنهم يقتلوننا »

ويحسن أن نورد ما حدث بعد ذلك على لسان عرابي كما جاء في مذكراته [1] قال : « ثم صاح بمن خلفي من الضباط : أن اتحدوا سيوفكم وعودوا إلى مكانكم . فلم يفعلوا وظلوا وقوفاً خلفي ودم الوطنية يغلي في مراجل قلوبهم والغضب ملء جوارحهم. ولما وقفت بين يديه مشيراً بالسلام خاطبني بقوله : « ما هي أسباب حضورك بالجيش إلى هنا ؟ » فأجبته بقولي :

« جئنا يا مولاي لنعرض عليك طلبات الجيش والأمة وكلها طلبات عادلة » . فقال : « وما هي هذه الطلبات ؟ » فقلت : « هي إسقاط الوزارة المستبدة ، وتشكيل مجلس نواب على النسق الأوربي ، وإبلاغ الجيش إلى العدد المعين في الفرمانات السلطانية ، والتصديق على القوانين العسكرية التي أمرتم بوضعها » . فقال : « كل هذه الطلبات لا حق لكم فيها، وأنا ورثت ملك هذه البلاد عن آبائي وأجدادي، وما أنتم إلا عبيد إحساناتنا ». فقلت : « لقد خلقنا الله أحراراً ، ولم يخلقنا تراثاً وعقاراً ، فوالله الذي لا إله إلا هو إننا سوف لا نورث ولا نستعبد بعد اليوم »

فتلفت الخديو إلى كلفن قائلاً : « أسمعت ما يقول ؟ » فأشار عليه هذا بالعودة إلى القصر إذ لا يجمل أن يزيد الأمر بينه وبين عرابي عن هذا الحد . فانصرف الخديو وبقي الجيش في مكانه لا يتزحزح

وأقبل مستر كوكس يناقش عرابياً في غلظة . ويخيل إلى أن هذا الرجل كان ممن يحسنون دس أنوفهم في كل شيء وكان ذلك منه لغاية كان يخفيها ! وعما وجهه إلى عرابي قوله: ألا حق له أن يطالب بالمجلس النيابي وإسقاط الوزارة فذلك من شأن الأمة ، أما عن زيادة الجيش فالية البلاد لا تساعد على ذلك

ورد عرابي بقوله إن الأمة أنابت الجيش عنها . ثم وجه نظر محدثه إلى الجموع المتراصة خلف الجند قائلاً هذه هي الأمة وما الجيش إلا جزء منها

فراح ذلك الإنجليزي يتهدد ويتوعد في فضول مخجل ، ورد عرابي على ذلك بأنه لن يسمح لأحد بالتدخل في شؤون مصر الداخلية. وهنا سأل كوكس محدثه سؤالاً يتجلى فيه خبثه وقد ظن أنه به أحكم الرمية فقال : « وماذا تفعل إذا لم تجب إلى ما تطلب ؟ » فانظر إلى رد هذا الجندي في هذا الموقف الذي تخف فيه أحلام الرجال والذي تزدهي القوة فيه القلوب فتسلب ذوي العقول اتزان عقولهم ! أنظر إلى عرابي في موقف الثورة يقول له : « إنها كلمة لا أقولها إلا عند اليأس والقنوط »

وأخذ كوكس يروح ويغدو بين عرابي والخديو حتى جاءه آخر مرة ينبئه بقبول الخديو إسقاط الوزارة القائمة وأن سموه سينظر في بقية الطلبات فلا بد في بعضها من مشاورة السلطان ؛ وقبل عرابي ذلك . فعرض الخديو على الجيش اسم حيدر باشا لرياسة الوزارة القادمة ولكنهم رفضوه ؛ وجرى على الألسن اسم شريف ، فعاد كوكس بعد حين يعلن إلى عرابي قبول الخديو تعيين شريف باشا فقوبل ذلك بالهتاف بحياة الخديو . والتمس عرابي الإذن على الخديو ، فلما وقف بين يديه أخذ يعبر له عن ولائه وولاء الجيش . وذكر له الخديو أنه وافق «على تلك الطلبات بنية صافية » ؛ ثم انصرف الجيش بعد ذلك في هدوء كل فرقة إلى مركزها

هذا هو يوم عابدين الذي اعتبره خصوم عرابي من أكبر سيئاته، والذي نعتبره في غير مغالاة أكبر حسناته. وليت شعري كيف ينقل هؤلاء عما ينطوي عليه هذا الموقف من معان ؟ ألا إنهم ليتغافلون ليطعنوا الرجل في أجل مواقفه وأعظم خطواته، وهم إنما يتألون بذلك من أنفسهم دون أن ينالوا منه

طالب عرابي بالدستور فكان في طلبه هذا زعيم ثورة تقوم على أجل المبادئ التي شاعت في القرن التاسع عشر والتي اعتبرها المؤرخون والناس من أعظم خطوات البشرية وأجلها نحو الرقي والكمال. فكيف يكون مع ذلك داعية فوضى واضطراب ؟ ولقد كثرت في أوربا المواقف الشبيهة في معناها بهذا الموقف فسجلتها الشعوب في ثبت مفاخرها واعتبرتها من أيامها المشهودة التي سوف تمجد إلى الأبد ذكراها

« يتبع »

المنشئ

(١) يذكر عرابي كوكس بدل كلفن في هذا القول أشار عليه المستر كوكس أن يطلق على غدارته، ويذكر كلفن أن كوكس لم يحضر إلا بعد ساعة أو نحوها